

نظريات التواصل الاجتماعي لدى هابرماس وباختين مقارنة فلسفية

م. م عقيل فاضل زكي

الجامعة المستنصرية/ كلية التربية الأساسية

aqelfzh1973@uomustansiriyah.edu.iq

حيث تُبنى الذات من خلال علاقتها الجدلية مع الآخر، ويتشكّل المعنى عبر التفاعل بين أصوات متعددة لا تخضع لهيمنة صوت واحد.

• الكلمات المفتاحية: الفعل التوا صلي، تعدد الأصوات، الحوارية، الفضاء العمومي

Abstract:

Social communication is considered one of the most prominent issues that have occupied contemporary philosophical thought. It is no longer merely a linguistic process between individuals; rather, it is viewed as a foundational structure for human existence, a mechanism for producing meaning, and a crucial medium in the formation of selves, relationships, and institutions. In this context, various theories have emerged attempting to understand the nature of this communication, among which are Jürgen Habermas's theory of communicative

• الملخص:

يُعدّ التواصل الاجتماعي من أبرز الإشكاليات التي شغلت الفكر الفلسفي المعاصر، إذ لم يُعد مجرد عملية لغوية بين أفراد، بل أصبح يُنظر إليه بوصفه بنية تأسيسية للوجود الإنساني، وآلية لإنتاج المعنى، ووسيطاً حاسماً في تشكيل الذات والعلاقات والمؤسسات. وقد برزت في هذا السياق نظريات متباينة تحاول فهم طبيعة هذا التواصل، ومن أبرزها نظرية الفعل التوا صلي عند الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس، ونظرية الحوار والتعدد الصوتي عند المفكر الروسي ميخائيل باختين.

يمثل هابرماس التواصل بوصفه فعلاً عقلانياً يهدف إلى التفاهم الحر بين الفاعلين، في إطار من المعايير التداولية التي تضمن الشفافية، والتكافؤ، وغياب الهيمنة، ويُنظر إلى هذا الفعل بوصفه أساساً لشرعية النظام الديمقراطي الحديث، ومقاومة الأيديولوجيات المشوّهة. أما باختين، فيقدّم تصوراً مختلفاً للتواصل يقوم على مبدأ الحوارية،

صلاحية هذين النموذجين في تف سير أشكال التوا صل الاجتماعي، وما تحمله من تحديات على مستوى المعنى، والسلطة، والتعدد.

وتطمح هذه المقاربة إلى الإسهام في تعميق فهمنا للفعل التواصلي، لا بوصفه أداة للتفاهم فقط، بل بوصفه مجالاً لل صراع الرمزي، والتفاعل الجدلي، وإنتاج الهويات المتغيرة في عالم شديد التعقيد. إذ يسعى هابرماس إلى تأسيس تواصل عقلاني يقوم على التفاهم بين الأفراد، في حين يركز باختين على التعددية الصوتية والتفاعل الجدلي بين الذات.

وستعتمد الدراسة التحليل المقارن عن إمكانيات توسيع المفهوم الفلاسفي للتوا صل ليشمل أبعاداً رمزية وجمالية أوس. بواسطة الوقوف على تحليل الذوصص الأصلية للفيلسوفين، والمقارنة بين المفاهيم من زاوية فلسفية ولسانية وسوسولوجية، فضلاً عن الاستفادة من المنهج التأويلي للكشف عن الأبعاد الرمزية لمفهوم التوا صل الاجتماعي.

● الخلفيات العلمية لهابرماس وباختين.

يورغن هابرماس فيلسوف وعالم اجتماع ألماني ولد عام ١٩٢٩، ويُعدُّ قطباً مهماً من أقطاب الجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت الفلاسفية، درس في جامعتي جوتنجن وبون

action and Mikhail Bakhtin's theory of dialogue and polyphony.

Habermas represents communication as a rational act aimed at free understanding among actors, within a framework of discursive norms that ensure transparency, equality, and the absence of domination. This act is seen as a basis for the legitimacy of the modern democratic system and for resisting distorting ideologies. On the other hand, Bakhtin presents a different conception of communication based on the principle of dialogism, where the self is constructed through its dialectical relationship with the other, and meaning is formed through the interaction of multiple voices that are not subject to the dominance of a single voice.

Keyword: Communicative Action, Polyphony, Dialogism, public space

● أهمية الدراسة ومنهجيتها:

تحدد أهمية هذه الدراسة في سعيها إلى إجراء مقارنة فلسفية منهجية بين نظريات التوا صل لدى يورغن هابرماس، وميخائيل باختين، للكشف عن مرتكزاتهما النظرية التي أنشأها، وأبعادها الاجتماعية والرمزية، وحدود التلاقح والافتراق بينهما، كما تنفتح الدراسة على أفق تطبيقي معاصر، من خلال تحليل الخطاب في الفضاءات الافتراضية، لاختبار مدى

كان لمنهج التداولية الأمريكية والتأويلية الألمانية واهتمامه بالماركسية الأثر البالغ في صياغة أغلب دراسته التي تناول فيها نقد التكنولوجيا والتواصل والعقلانية وغيرها (فينيلسون، ٢٠١٥، الصفحات ٣٣-٣٥).

أما المفكر والفيلسوف الروسي ميخائيل باختين فقد ولد في عام ١٨٩٥، أنهى دراسته الأدبية الأولى في جامعة (لينينغراد)، وفي أوائل العشرينيات لجأ إلى لغة الفلاسفة الكانطيين الجدد، وفي نهاية العشرينيات تبني عددًا من الأساليب المختلفة الموجهة إلى جمهور أوسع، حيث كان أسلوب أكثر بساطة وأكثر جدالية، وفي الثلاثينيات والأربعينيات تبني أسلوبًا يقع في منتصف المسافة بين الأسلوبين السابقين، وفي العقود الأخيرة من حياته أصبح أسلوبه أكثر ميلًا إلى لغة الفلسفة ومفرداتها الاصطلاحية، وينظر إلى باختين بوصفه ناقدًا أدبيًا تارة، ومفكرًا اجتماعيًا تارة أخرى، وفيلسوفًا في بعض الأحيان بسبب طبيعة ازدهاراته المبكرة بالفلسفة الألمانية وعودته في السنوات الأخيرة من حياته للعمل على الثيمات الفلسفية التي شغلته طوال حياته، ومن أهم المصطلحات العلمية التي جاء بها باختين في مجال اللسانيات والسوسيونصيات: الحوارية، وعبر اللسانيات، وتعدد الأصوات، والكرنفالية (تودوروف، ١٩٩٦، الصفحات ٦-٨).

التي حصل منها على الدكتوراه في عام ١٩٥٤ برسالته عن (المطلق والتاريخ أو التمزق في تفكير شيلنج)، ومن ثم تابع دراسته في جامعة ماربورج التي حصل منها في عام ١٩٦١ على دكتوراه التأهيل للتدريس الجامعي برسالته عن (تحول بنية الرأي العام بحوث عن إحدى مقولات المجتمع البرجوازي ١٩٦٢)، عين محاضرًا للفلسفة بجامعة هيدلبرج، ثم شغل مناصب استاذ الفلاسفة والاجتماع فيها من عام ١٩٦٤ إلى عام ١٩٧١، تولى إدارة معهد ماكس بلانك لبحث الشروط الحيوية لعالم العلم والتقنية من عام ١٩٧١ إلى عام ١٩٨٢، ودعي ليكون استاذًا شرفيًا بجامعة فرانكفورت عام ١٩٨٤، (مكاوي، ٢٠١٨، الصفحات ٦٥-٦٧)، ويمكننا أن نقسم حياته على مرحلتين: الأولى تلك التي انغمس في دراسة أعمال مارتن هايدجر فعارض أفكاره بسبب انتمائه للحزب النازي، وتأثر فيها في بادئ الأمر في مدرسة فرانكفورت (تيودور أدورنو و ماكس هوركهايمر)، وفي فترة ما بعد الخمسينيات أضحى أعمال هابرماس أكثر راديكالية بعد أن اتخذت موقفًا نقديًا معارضًا للفلسفة وأكثر تعاطفًا مع ماركس (فينيلسون، ٢٠١٥، الصفحات ١٠-١٣)، فيما أظهرت المرحلة الثانية لسيرته العلمية اهتمامًا بمنهج البراغماتية الأمريكية الذي وضعه ويليام جيمس، وجون ديوي، وجورج هيربرت ميد، وتشارلز بيرس، والمنهج التأويلي الممتد من فلهام دلتاي إلى غادامير، وقد

■ أولاً. نظريات هابرماس التواصلية.

التدقيق بين الأفعال، التي من شأنها أن تجمع بين
أصعدة الفعل والأذ شطة الغائية للم شتركين في التفاهم
بغرض التفاعل (هابرماس، ٢٠٢٠، ال صفحات ٢١٣-
٢١٤).

ويطلق هابرماس تسمية الأفعال فقط على تلك التعابير
الرمزية التي من خلالها يدخل الفاعل في صلة مع العالم
الموضوعي، الذي يميز من خلاله حركات الجسم
والعمليات التي تنجز بمعية الأفعال، والتي لا تنفصل
عن الأفعال إلا في شكل ثانوي، فمن جانب كونها
حوادث في العالم قابلة للملاحظة، تظهر الأفعال بمثابة
حركات جسمانية يحكمها عصب مركزي هو الحامل
الذي على أساسه يتم القيام بالأفعال وبوساطتها يغير
الفاعل شيئاً ما داخل العالم، فيمكننا أن نميز الحركات
التي بها تتدخل ذات ما داخل العالم وهي تنجز فعلاً
أداتياً، عن الحركات التي تجسد دلالة ما تعبر على
نحو تواصلية، إن الأفعال هي في معنى ما متحققة عبر
حركات البدن، ولكن فقط من جهة أن الفاعل، إذ يتبع
قاعدة تقنية أو اجتماعية للفعل، إنما ينفذ هذه الحركات
على وجهه صاحبها، ويقصد بها إنجاز خطة الفعل،
وبوجه عام أن حركة الجسم هي عذصر من عناصر
الفعل، ولكنها ليست فعلاً (هابرماس، ٢٠٢٠، الصفحات
٢١٥ - ٢١٧).

١- نظرية الفعل التواصلية.
قدم يورغن هابرماس أحد أبرز المشاريع الفلسفية المعاصرة
في القرن العشرين، حيث سعى إلى إعادة بناء الفكر
الاجتماعي والفلسفي على قاعدة "العقل التواصلية" بديلاً
عن "العقل الأداتي". وقد تمثل هذا المشروع في نظريته
الموسعة المعروفة بـ "نظرية الفعل التواصلية"، والتي تُعد
امتداداً نقدياً لمقولات الحداثة (المسكين، ٢٠١٤،
صفحة ١٣٠)، ويفترض هذا الفعل (اللغة باعتبارها
وسطاً لتفاهم غير مبتور، حيث المتكلمون والمستمعون،
وانطلاقاً من أفق عالم الحياة المتأول سلفاً المذي من
شأنهم، هم يقيمون الصلة في الآن ذاته مع شيء من
العالم الموضوعي والعالم الاجتماعي والعالم الذاتي، وذلك
من أجل المفاوضة على تعريفات مشتركة للوضعية
السائدة) (هابرماس، ٢٠٢٠، صفحة ٢١٣)، ويراعي هذا
الفعل كل وظائف اللغة التي حددتها تقاليد العلوم
الاجتماعية المتصلة بالتفاعلية الرمزية لميدي
(Mead) ومفهوم فتنغشتاين عن الألعاب اللغوية
ونظرية أفعال الكلام عند أوستين وتأويلية غادامير،
ويتضح ذلك من خلال المقاربات المنهجية - الأثنائية
والتأويلية الفلسفية، ويعبر التفاهم اللغوي على
مستوى الوقائع في هذا النموذج التواصلية صلي عن آلية

وتشارك العديد من العلوم والمعارف كالفلسفة والسوسيولوجيا والاقتصاد والتاريخ والسياسة في صياغة مفهومه المعرفي والاجرائى، الذي (يحاول أن يوضح العلاقة بين المذات المفكرة، والعاملة، والفاعلة، وبين ارتباطها بالآخرين، والعالم الخارجى، حيث يظهر كمدخل لتوضيح الحدود بين الشأن الذاتى والشأن الجمعى أو العام. كما يعتبر الفضاء العام مفهوماً تاريخياً يستوجب البحث في شروطه، ومكوناته، وتطوره وشروط تكونه تاريخياً) (مجموعة مؤلفين، ٢٠٠٨، صفحة ١١٠).

وتمتد جذور الفضاء العمومى إلى القرن السابع عشر، إذ رافقت ظهوره العديد من التقلبات والظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي عرفت بأوروبا، ما حتمت هذه الظروف من حاجة لإيجاد علاقة بين مجال الدولة وسلطاتها الإدارية والقانونية، والمجال الخاص المكون من الأسرة والمجتمع، وهناك من يثبت أن للفضاء العمومى جذوراً تاريخية أعمق، إذ نظر إليه العديد من الكتاب المذنبين ينتمون إلى حركات مختلفة وفترات تاريخية مختلفة "بدءاً من أفلاطون وأرسطو" على أنه ظرف يتسم بالسمعي نجو تحقيق كل المصالح الإنسانية والاجتماعية في أي مجتمع يأتي بعد المجتمع المحورى (سالفاتورى، ٢٠١٢، صفحة ٤٢٦)، ومنهم من يذهب إلى أن مفهوم الفضاء العمومى مرتبط بكانط،

والأمر الثانى الذى تستند إليه نظرية الفعل التواصلى، التأمل الذى يجب أن يوضح لنا لماذا لا يمكننا أن نحلل أعمال التفاهم المقومة للفعل التواصلى، بطريقة مماثلة للجمل النحوية التى بواسطتها تقوم تلك الأعمال، فليست اللغة بالنسبة إلى الأنموذج التواصلى للفعل بذات أهمية إلا من ناحية تداولية، لأن استخدام المتكلمين لجمل موجهة نحو التفاهم، يضطلعون بعلاقات ما مع العالم، وهذا ليس على نحو مباشر فحسب، كما هى الحال مع الفعل الغائى أو الفعل المدرامى، بل بطريقة التفكير، إذ شأن المتكلمين أن يدمجوا المفهومات الصورية الثلاثة للعالم في منظومة واحدة، وهم يفترضون هذه المنظومة على نحو مشترك باعتبارها إطاراً قابلاً للتأويل (هبرماس، ٢٠٢٠، صفحة ٢١٩).

٢- والفضاء العمومى.

يعبر الفضاء العمومى بوصفه مجالاً افتراضياً عن حلقات الحوار والمناقشات التى تتكون عبر الزمن، والتى تستند بدورها إلى العديد من القيم المشتركة والمفردات والمنظومات والاعتراف المتبادل بالشرعيات المتعددة الخاصة بكل فاعل، وإلى رؤية متقاربة ليدخل إلى حالة ممكنة من النقاش والاعتراض والتشاور، فهو يعكس حقيقة الممارسة الديمقراطية أو التعبير عن تناقض المعلومات والآراء والمصالح والايديولوجيات (مصدق، ٢٠٠٥، صفحة ٨)،

والمالية، فالفضاء العمومي ليس فضاء إجباري مر سوم الحدود ولم يخرج عن إطار التجربة التاريخية (إنه قبل كل شيء فضاء رمزي يتكون عبر الزمن ويحتاج تكونه إلى تبلور مفردات ومنظومات قيم مشتركة واعتراف متبادل بالشرعيات المتعددة الخاصة بكل فاعل ورؤية متقاربة حتى يصح من الممكن النقاش والاعتراض والتشاور. فهو ليس قضاة نختاره أو تفرضه بإرادتنا. وقد يوجد أو لا يوجد. إنه يعكس حقيقة الممارسة الديمقراطية أو التعبير عن تناقض المعلومات والآراء والصالح والايديولوجيات، إنَّه ما يجمع بين ملايين المواطنين ويقدم لهم الشعور بالشاركة الفعلية في الحياة السياسية. ويفترض وجود الفضاء العمومي وجود أفراد يتمتعون باستقلالية كبيرة وقادرين على أن يبلوروا بأنفسهم آراء ووجهات نظر خاصة لا تكون صدى لآراء النخب الحاكمة أو الأحزاب التي ينتمون إليها (مصدق، ٢٠٠٥، صفحة ٨).

■ ثانيًا. نظريات باختين التواصلية:

١- الحوارية.

يرتبط هذا المفهوم بشكل وثيق بميخائيل باختين الذي يعدّه بمثابة رد على السلوية التي تتجاهل المستوى الاجتماعي للخطاب الأدبي (لذلك فإن السلوية لا تعالج مشكلاتها بطريقة جدية، فلسفية واجتماعية وإنما

الذي يؤكد على أهمية استعمال العقل بوصفه سلاحًا ضد القمع الفكري؛ ليتشكل الفضاء العمومي ضمن حيز هذا الاستعمال، فيتاح لجميع المواطنين بتكوين آراء تجابه بها السلطة المركزية وهو ما يسميه بالتنوير (عيادي، ٢٠٢٠، صفحة ٧٨).

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية وعودة مدرسة فرانكفورت إلى ألمانيا، وما عصفت في أوروبا من تحولات سياسية واجتماعية واقتصادية، ظهرت الحاجة إلى توسيع المجال العمومي، والانتقال إلى مرحلة تتماهى مع التغييرات التي أنتجتها الحرب الكونية الثانية، وجّه هابرماس جهوده على دراسة النظرية النقدية وإعادة قراءة الماركسية وبناءها من جديد، ونقده لرواد مدرسة فرانكفورت الأوائل وسعيهم لاختزال العقلانية بالأداتية، فتوصل إلى إعادة تأسيس النظرية النقدية على ما يسميه العقلانية التوافقية المرتبطة جوهريًا بعملية التفاوض الاجتماعية التي يوضع لها الأفراد بصورة عفوية وأساسية، وذهب إلى القول بأن عملية الاندماج الاجتماعي لا تتحقق إلا بواسطة التوافق أو التفاهم المتضمن للأفعال اللغوية للمشاركين والتي تفترض الاتفاق أو الاجماع بين المشاركين في عملية التواصل (بونينير، ٢٠١٠، صفحة ١١٨)، وفي مرحلة أخرى تقدم هابرماس بأنموذج جديد لفكرة الفضاء العمومي، يرفض فيه عملية انقياده للدولة أو مؤسساتها الاقتصادية

تنا صي، وإن كل خطاب يعود على الأقل إلى فاعلين، ولا تنتمي العلاقات التنا صية إلى اللغة؛ بل للخطاب الذي يشكّل العلاقات الحوارية التي تُعدّ نمطاً استثنائياً من العلاقات الدلالية التي ينبغي أن تتشكل أجزاؤها من تعبيرات برمتها "أو تعبيرات تعد تامة أو تتضمن احتمال كونها تامة"، يقف خلفها "ويعبرون عن أنفسهم سهم" فاعلون متكلمون حقيقيون أو فاعلون متكلمون محتملون، مؤلفو التعبيرات موضوع الكلام (تودوروف، ١٩٩٦، صفحة ١٢٢).

وعليه فإن الحوارية تتلخص بالتوجيه الحوارية وهو: ظاهرة مشخصة لكل خطاب، وهو الغاية الطبيعية لكل خطاب حي. يفاجئ الخطاب خطاب الآخر بكل الطرق التي تقود إلى غايته ولا يستطيع شيئاً سوى الدخول معه في تفاعل حاد وحي. آدم فقط هو الوحيد الذي كان يستطيع أن يتجنب تماماً إعادة التوجيه المتبادلة هذه في ما يخص خطاب الآخر الذي يقع في الطريق إلى موضوعه؛ لأنّ آدم كان يقارب عالماً يتسم بالعدوية ولم يكن قد تكلم فيه وانتبهك بساطة الخطاب الأول (تودوروف، ١٩٩٦، صفحة ١٢٥).

٢- تعدد الأصوات (Polyphony).

يرتبط مفهوم تعدد الأصوات بالحوارية التي نَظر لها ميخائيل باختين بعد دراسته لروايات الكاتب الروسي

تغرق نفسها في التفاصيل. إنها لا تعرف كيف تتبين من وراء التحويلات الفردية، الموجهة، المصائر الكبرى العقل، داخل الخطاب الأدبي. وفي معظم الحالات، تقدم نفسها على أنها أسلوبية "فن داخل غرفة"، فتتجاهل حياة اللفظة خارج معمل الفنان، أي وسط الفضاءات الشاسعة للساحات العمومية، والأزقة والمدن والقرى، والفئات الاجتماعية، والأجيال والحقب (باختين، ١٩٨٧، صفحة ٣٥)، وبهذا ستكون قاصرة إعطاء فهم تاريخي وفلسفي واجتماعي للخطاب الأدبي، فيما يذهب باختين إلى أن الخطاب يجب أن يدرس ضمن قالب اجتماعي لأن (الذات المتكلمة، مأخوذة من الداخل، تصبح، وبصورة كلية نتاجاً لعلاقات اجتماعية متداخلة. وليس التعبير الخارجي وحده هو ما يقع ضمن حدود الأرض الاجتماعية بل الخبرة الداخلية أيضاً. ومن ثم فإن السبل التي تصل الخبرة الداخلية "المعبر عنها" بعملية تحويلها إلى موضوع خارجي "التلفظ" تقع بكاملها ضمن الأرض الاجتماعية) (تودوروف، ١٩٩٦، صفحة ٧٤).

وعملية التلفظ التي ترتكز على مبدأ ثلاثي الأدوار تحيل إلى العلاقات التي تربط خطاب الآخر بخطاب الأنا، والتي تنفصلي إلى عملية تبادل الحوار، وبالرغم من عدم تماثلها؛ إلا أن جميع العلاقات التي تربط تعبيراً لفظياً بآخر، هي علاقة تناص، فلا وجود لتلفظ مجرد من بعد

اجتماعية "حتى وإن كانت جنينية" وليست "لهجة فردية". إن الخلق الفردي والمصائر الفردية والكلمة الفردية التي لا يحكمها إلا هذا الخلق وهذه المصائر لا تهم بحد ذاتها الرواية. فمن خصائص كلمة البطل أنها تهدف إلى قيمة اجتماعية ما، إلى أنتشار اجتماعي ما، فهي لغة بالقدرة. ولهذا السبب يمكن لكلمة البطل أيضاً أن تكون عامل تفكيك للغة وإقحام للتنوع الكلامي فيه (باختين، الكلمة في الرواية، ١٩٨٨، صفحة ١١٠).

فالبطل في الرواية ليس شخصية خيالية؛ بل شخص محدد تاريخياً، يعيش ضمن مجتمع وتاريخ معينين، ويمتلك أرضاً ثقافياً ويتأثر بالثقافات الأخرى والظروف الدينية والسياسية والاقتصادية، بصرف النظر عن عمر المتكلم ودرجة وعيه، وفي الرواية المتعددة لا مجال للتفكير بالمشاعر والمصير الشخصي الفردي، فهي تركز إلى المصير الجماعي الذي يعبر عن القيم الاجتماعية، وكلام البطل هو تعبير عن المدافع عن المجتمع أو الفكر أو العقيدة والهوية الجمعية.

ونتيجة لهذه المعطيات المهمة، سيكون الفضاء الروائي معبراً عن الفضاء الافتراضي الحر الذي تتحاور فيه الشخصيات بمعزل عن السلطة وممارساتها الإقصائية، وسيضمن هذا الفضاء أيضاً عملية إدارة الحوار بدون إعلان غلبة أحد الأطراف، ولا يفترض

ديستوتوفسكي، وتدستند فكرته الرئسية على تحليل الخطاب الروائي، الذي يتصف التعدد اللساني والانفتاح الأيديولوجي داخل هذا الخطاب؛ إذ إن الخطاب الروائي يتأسس بموجبها على عدد من الذات الناطقة والمفكرة التي تمتلك استقلالية فكرية وتعبيرية كاملة، فلا يظهر صوت المؤلف الذي يختبئ خلف الراوي أو الشخصية الرئيسية، ولا تختزل الأصوات الأخرى فيه ولا تتماهى مع وعيه وأيديولوجيته الخاصة.

وينتج هذا التعدد فضاءً روائياً تفاعلياً، تتقاطع وتمتزج فيه أشكال الوعي والمرجعيات الثقافية والاجتماعية والفكرية المختلفة، مع غياب الهيمنة الفكرية لأحد الأطراف بشكل كامل، فالشخصيات في هذا النمط من الروايات لا تُقدّم بوصفها أدوات في يد المؤلف، بل كذوات قائمة بذاتها، لها لغتها، وأفقها المرجعي، وموقفها الأيديولوجي الخاص. وبذلك، فإن "الكلمة" التي تنطق بها الشخصية لا تُختزل في وظيفة سردية أو وصفية فحسب، ولا تُستنفد دلالتها ضمن الموقف الحياتي أو العملي، بل تحمل طابعاً تأويلياً مستقلاً، يتجاوز رؤية المؤلف (باختين، شعرية دوستوتوفسكي، الصفحات ١١-١٢).

ويؤكد باختين على أن المتكلم في الرواية هو: (إنسان اجتماعي، مخصص، محدد تاريخياً، وكلمته لغة

يستند هابرماس في نظرياته (الفعل التواصلي، والفضاء العمومي) إلى اللغة بشكل رئيس، فحين شرع بإدخال (ال سؤال الفل سفي في نظرية عامة للتوا صل والبرهنة وللحقيقة أساسها نظرية للمجتمع تتخذ من النقد أسلوباً وأداة) (افاية، ١٩٩٨، صفحة ٦٠) و ضع أمام خيار اللغة الذي لا غنى عنه في الدراسات اللسانية، فهي تُعدّ الركيزة المهمة في عملية التوا صل والتفاهم والتفاعل والمناقشة، واستناده إلى اللغة بوصفها وسيلة تواصلية، هو ت صفية لحد سابه مع (التراث الفل سفي الميتافيزيقي المستند إلى فل سفة الوعي، واستلهم بعض أدواته من مناهج العلوم الاجتماعية ومن عطاءات الاب ستمولوجيا المعال صرة لينتقل بعد ذلك إلى التفكير في اللغة وفي قدرة العقل البرهانية لبناء نظرية عقلانية توا صلية تتخذ من النقد والمحكمة قاعدتها المركزية) (افاية، ١٩٩٨، صفحة ٧٣)، وتأثر هابرماس باللغة له مبرراته التي أ شرنا إليها آنفاً وتتلخص بتأثره في المرحلة الثانية لمسيرته العلمية بمنهج البراغماتية الأمريكية الذي وضعه ويليام جيمس، وجون ديوي، وجورج هربرت ميد وغيرهم، فقد عمل على تحليل نظرية فعل الكلام ودرا سة الإنطاق والإستنطاق، وهو يعتقد أن أثر الإنطاق لفعل الكلام هو توليد الإجماع المدفوع بالعقلانية، أو الحصول على غاية بعينها عن طريق الوصول إلى إجماع، أما الاستنطاق فهو الأثر الذي يتمتع به فعل الكلام

تعدد الأصوات الاجتماع بالرؤى أو أق صاء أحدها وتبني الأخرى.

يحد سب لباختين المذي جاء بالنظرية الحوارية وتعدد الأصوات، أنه يتبع فل سفة تُعلي من شأن التعدد والتغاير، وتندصر للغيرية بالصد من الانغلاق الأحادي، وهي تفتح أفقاً جديداً لفهم التوا صل بوصفه سيرورة لا تنتهي، تتداخل فيها الذات والخطابات بصورة دينامية لا تسمح بتجميد المعنى أو مصادرته.

● الاتفاق والاختلاف بين هابرماس و باختين: مقاربة فلسفية مقارنة:

لسنا بصدد عقد مقارنة دقيقة توافقية أو اختلافية لكلّ النتاج المعرفي الذي صدر عن العالمين؛ لكننا سنقف عند نظريتهما الخاصة بالتوا صل والجذور التي او صلتهم لهذه النظريات، بصرف النظر عن الزمن الذي يفصل بينهما، والظروف الجيوسياسية التي تمثل القطيعة بين وطنيهما لحقبة طويلة نسبياً، وقد أفضت الدراسة بعد عرض أهم نظريتهما التوا صلية إلى عدة نقاط التقاء واختلاف نلخصها فيما يأتي:

■ أولاً. نقاط الالتقاء في فكر هابرماس و باختين التواصلي.

١- الالتقاء على صعيد التواصل اللساني:

حقيقة وواقعية تاريخية ومنتجة للثقافة، حين ت صبح جزءاً من الذ سيج الاجتماعي، والذات المتكلمة مأخوذة من المداخل، ت صبح، ب صورة كلية نتاجاً لعلاقات اجتماعية متداخلة، فليس التعبير الخارجي المتمثل ب "التلفظ" ما يقع ضمن حدود الأرض الاجتماعية؛ بل الخبرة المداخلية أي ضاً، وهذه الخبرة التي تعبر عن الأفكار، وتحوّلها خارجياً تقع ضمن الأرض الاجتماعية، وبهذا فإن بنية التلفظ ستكون هي بنية التوا صل الاجتماعي بين الافراد (تودوروف، ١٩٩٦، الصفحات ٧١-٧٤).

وانتقال باختين لدراسة عبر اللسانيات بوصفها بديلاً عن اللسانيات التقليدية ثنائية الشكل والمضمون، يُعدُّ انقلاباً على أصوله الشكلائية القديمة، وانتصاراً لمنهجه الجديد الذي يعتمد على رؤيته ال سو سيو □ ذ صية ذات البعد التنا صي، فلن تحيل الكلمة بعد الآن إلى المعاجم وقواميس اللغة، بل على التاريخ الذي اكت سبت من خلاله دلالتها، وإلى المجتمع الذي أخذت منه هذه الدلالة عبر تحولاتها المتراكمة، فلا وجود لكلمة مجردة من بعدها الاجتماعي الايديولوجي، فاللغة هي نتاج تفاعل بين الأفراد، حيث لا يمكن للإنسان أن يتحدث إلا من خلال التأثر بكلام الآخرين. لذا، فإن اللغة تعكس التنوع والتعقيد في الحياة الاجتماعية، وتظهر كحركة ديناميكية تتشكل باستمرار من خلال الاستخدام

بخلاف تحقيق الفهم، وآثاره خفية وربما تكون محمودة أو مذمومة، وعليه فأفعال الكلام ذاتية التفسير، والهدف من تحليل أفعال الكلام هو إثبات أن غايات الإنطاق أنها أو ضح للعيان وأبسط نظرياً من غايات الاستنطاق المتي قد لا يتطابق فيها الملفوظ مع فعل الكلام (فينلي سون، ٢٠١٥، ال صفحات ٦٤-٦٥). وبهذا ستؤدي اللغة دوراً رثياً ساً في التوا صل الاجتماعي بين الأفراد، فهي لي ست مجرد نظام لغوي يخضع لبعض القواعد ولكنها في الأ ساس حوار وعلاقة بالآخر، فالتوا صل بو ساطة (اللغة عنده يمكن أن يحدث فقط عندما يدخل المشاركون ب صورة تلقائية مع بعضهما البعض فيما يخص شيئاً من الأشياء في هذين المستويين) (أبو النور حسن، ٢٠١٢، صفحة ١٦٤).

ولا يختلف الأمر كثيراً عند باختين الذي يُهدُّ المنظر الأول لعلم عبر اللسانيات الذي يهتم بـ (الخطاب أي اللغة كظاهرة كلية ملموسة، الخطاب أي التلفظ) (تودوروف، ١٩٩٦، صفحة ٦٠)، فضلاً عن جهوده المتميزة في مجال ال سو سيو صيات الروائية، فاللغة واشتغالاتها هي في صلب اهتماماته وتخصصه الذي أبدع فيه، واستعمله في جميع نظرياته النقدية المستحدثة، ويذهب باختين في دراسته التوا صلية التي تعتمد على الحوارية، أن لا وجود لإنسان خارج المجتمع، أو خارج القيود الاجتماعية، لأن ال شخصية الإن سانية ت صبح

اليومي. هذا التحول في دراسة اللسانيات يعكس فهمًا أعمق للعلاقة بين اللغة والمجتمع، مما يفتح آفاقًا جديدة لدراسة كيف يتم بناء المعاني وتبادلها في سياقات مختلفة. (شوفي، ٢٠١٨، صفحة ٢٧٢).

ومما سبق نلمس اتفاق كل من هابرماس وباختين على جعل اللغة هي الوسيط الموثوق به والمعبر عن كل ما تتنازعه النفس الإنسانية الساعية لخلق الصلات الوثيقة مع مجتمعتها، فتأثر هابرماس بنظرية أفعال الكلام التي هي تعبير عن سبر ما تحمله اللغة من تأويلات مضمرة داخل الكلام، وفي الجهة المقابلة كانت لإشتغالات باختين اللسانية، التي توصلت إلى الإتيان بنظريات لسانية جديدة تتصف بطابعها ال سيولوجي والتواصلي، الأثر البالغ في تطور سيونصيات الخطاب، التي تستند إلى اللغة بوصفها المجال التأويلي والحواري الذي يساعد على فهم المتحاورين واندماجهم ضمن وسط تفاعلي متناغم.

٢- الاتفاق على رفض الأحادية والسلطوية:

تتجلى الديمقراطية والعيش المشترك ورفض السلطة في معظم كتب ونظريات هابرماس، وتظهر هذه المبادئ بشكل مكثف في نظريتي (الفعل التواصلي، والفضاء العام)، فيذهب هابرماس إلى القول: (إن الأفعال المعدلة معيارياً والأشكال الإفساحية لتقديم النفس والتعبير

التقويمية إنما شأنها أن تتم الأفعال الكلامية التوصيفية بإضافة ممارسة تواصلية هي على خلفية عالم الحياة تستهدف تحقيق الوفاق والحفاظ عليه وتجديده، وهو وفاق يرتكز في الواقع على الاعتراف البيداتي بادعاءات صلاحية قابلة للنقد... وإن عقلانية الذين يشاركون في هذه الممارسة التواصلية صلبة إذما تقاس بما إذا كانوا يستطيعون أن يعملوا تعابيرهم تحت ظروف مخصوصة. بذلك، فإن العقلانية الكامنة في الممارسة التواصلية اليومية إنما تحيل أي ضاً على الممارسة الحجاجية بوصفها هيئة استثنائية من شأنها أن تمكن من مواصلة الممارسة التواصلية بطرائق أخرى، وذلك حين يحدث انشقاق ولا يمكن رأب الصدع بواسطة الإجراءات الروتينية اليومية، ومع ذلك يجب ألا يحسم بالا استخدام الاستراتيجي للقوة) (هابرماس، ٢٠٢٠، صفحة ١٠٣)، وفي الفضاء العمومي الذي يسعى باختين إلى تأسيده بمعزل عن السلطة، فيؤكد على المبادئ المتعلقة بالحريات والسياسات الديمقراطية، ومنها: مبدأ المناقشة الحرة للقضايا والنقد العقلاني في الشؤون السياسية إمكانية مع إمكانية تحول الرأي إلى عملية حوار عقلاني نقدي متحرر من الهيمنة. (أبو النور ح، سن، ٢٠١٢، صفحة ١٩٥)، ويحمل مشروع هابرماس بعداً أخلاقياً وسياسياً واضحاً، إذ يسعى لتثبيت التواصل

هي تعدد أشكال الوعي المتساوية الحقوق مع ما لها من عوامل، والجمع بينها ضمن الفضاء الافتراضي هو ما سعى إليه دوستوفسكي في رواياته، واستخلصه باختين من دراسته لهذا الخطاب الروائي السوسيولوجي (باختين، شعرية دوستوفسكي، ١٩٨٦، صفحة ١٠).

وتظهر سمات الاتفاق بين هابرماس وباختين، إذ يذهب كلا المفكرين إلى أهمية اندماج الأفراد فيما بينهم والتركيز على ما ينتج عن هذا الاندماج من نتائج اجتماعية وثقافية نستشعرها بوساطة اللغة التي تمثل الوسيلة التي ترسم حدود شبكة التواصل لهذه التجمعات الديمقراطية، التي ترفض قمع السلطة والخطاب الفردي، الذي يؤسس للهيمنة الفكرية، وينتج التبعية لذات واحدة فقط.

٣- الاتفاق على عدم إقصاء الآخر:

عند قراءة النتائج الفلسفية والفكرية لهابرماس وباختين على حد سواء سنواجه في العديد من الفقرات، التأكيد على عدم إقصاء الآخر بوصفه غير منسجم تبعاً لعقيدته أو عرقه أو أثنيتها أو ثقافته أو ما يتعلق بالحالة المادية التي تقع سم العالم إلى طبقات، فقد سعت نظرياتهم ومفاهيمهم الجديدة إلى إرساء قيم الاعتراف بالآخر وعدم إقصائه وضمان حقوقه الفكرية والثقافية والعرقية.

كقاعدة للديمقراطية وشرعية القانون، ويقاوم به الهيمنة الأيديولوجية. في المقابل.

أما بالنسبة لباختين الذي تأثر بقمع السلطة في بدايات شبابه، فقد ذهب في جميع كتاباته إلى إبراز دور الفرد المنخرط في السياق الاجتماعي، ففي العديد من دراسته ذهب إلى تتبع الأثر الاجتماعي والسياسي ومن ثم اقتفاء أثر اللغة والفضاء العام في الاحتفالات والممارسات والطقوس، وهذا ما يظهر في دراسته لروايات دوستوفسكي وفرانسوا رابليه، التي تعد البيئية عكست أنشطة المجتمع وممارساته بعيد عن قمع السلطة، فكان لنظرياته اللسانية والسوسيولوجية الأثر المهم في مسيرة هذين المجالين، فقد جاء بنظرية الكرنفالية التي يتجلى فيها مفهوم إشاعة عدم الكلفة الذي ينظم علاقة الإنسان بالإنسان بعيداً عن التمايز الاجتماعي، ومع عدم الكلفة تبرز العلاقات غير المتكافئة، فالكرنفال يوحد، ويقرب، ويربط، ويقرب المقدس بالمدنس، والسامي بالوضيع، والعظيم بالتافه، والحكيم بالبليد، (باختين، شعرية دوستوفسكي، ١٩٨٦، صفحة ١٨١).

وتظهر عملية رفض الأحادية والسلطوية جلية في مبدأ تعدد الأصوات الذي يتيح لكل الأصوات التي تعبر عن الذات المشاركة في الحوار، ضمن فضاء رمزي، وتعدد هذه الأصوات لا تعني كثرة الشخصيات والمصائر؛ بل

ويذهب هابرماس في سياق نظرية الفعل التواصلي إلى أن اللغة (ليست مجرد نظام لغوي يخضع لبعض القواعد ولكنها في الأساس حوار وعلاقة بالآخر والغيرية ويبقى الحوار بالنسبة له علاقة ضرورية لا غنى عنها للتغلب على الخلافات وإرساء مبدأ الفهم كاشتراك ومشاركة، فكل حوار حقيقي يقتضي أن ننحني أمام الآخر وأن نولي وجهة نظره الأهمية الواجبة وأن ننفذ إلى عقله، ليس بهدف فهم الشخص وإنما بهدف فهم ما يقوله، وعلينا أن ندرك مدى صلاحية وجهة نظره حتى يكون بيننا تفاهم حول المسألة المثارة) (أبو النور ح، سن، ٢٠١٢، صفحة ١٤٦)، وبهذا سيكون وجود الآخر مكتملاً لذات المتكلم، الذي يسعى يأسس فضاء الافتراضي لفهم وجهات النظر المخالفة. فالعقلانية التوافقية التي تسعى إليها هابرماس تدعو إلى (ضبط علاقة الفرد بالآخر وإخضاع العلاقات الاقتصادية والسياسية القائمة داخل المجتمع لأخلاقيات المناقشة). فالحوار القائم على المساواة ومن دون ضغط أو إكراه، يعد البداية الأولى لحمل المجتمع بكافة طبقاته على جمعة تحقق عقداً اجتماعياً يقبله ويحتكم إليه الجميع) (مصدق، ٢٠٠٥، صفحة ١١٩).

ويذهب باختين إلى أن كلام الإنسان لا يفهم بذاته؛ بل في علاقة التحدث الملموس فلا يرتبط إلا من خلاله يتشعب بقواه الحية، ويصير واقعاً حقيقياً. إن شروط التواصل اللفظي، وإن شروط التواصل المجتمعي اللفظي (باختين، الماركسية وفلسفة اللغة، ١٩٨٦، صفحة ١٦٥).

ويذهب باختين إلى أن كلام الغير أو الآخر؟ كيف تحس الذات المتلقية، في وعيها بتحدث الغير، هذا الوعي الذي يعبر به ساطة الخطاب الداخلي؟ وكيف يستقبل الوعي الخطاب بفعالية، وما هو التأثير الذي يمارسه الخطاب على توجيه الكلام الذي سيتلفظ به المتلقي من بعد؟ وجواب كل هذه التساؤلات: أن الجنس الروائي هو فضاء لنقل كلام الآخرين ومحاوَرته، إنه إنصات ذكي ومبدع لصوت الحياة الاجتماعية الزاخرة في تقلباتها واستقرارها، إننا نمارس شرعة على الآخرين، نعارضهم ونتفق معهم، نتقبل أقوالهم ونصارعها، ونؤكد مواقفهم وننكرها، ومن ثمة يأخذ كلام الآخر بعداً أكثر عمقاً وجدياً حينما يتعلق الأمر بالضرورة الأيديولوجية للإنسان، أي حينما يكف هذا الكلام عن أن يكون مجرد خبر (شعلان، ٢٠٠٨، صفحة ١١).

ويذهب باختين إلى أن كلام الإنسان لا يفهم بذاته؛ بل في علاقة التحدث الملموس فلا يرتبط إلا من خلاله يتشعب بقواه الحية، ويصير واقعاً حقيقياً. إن شروط التواصل اللفظي، وإن شروط التواصل المجتمعي اللفظي (باختين، الماركسية وفلسفة اللغة، ١٩٨٦، صفحة ١٦٥).

نظرياته التوافقية ذات الصبغة الفلسفية، التي تعتمد العقلانية التواصلية بالذم من العقلانية الآداتية.

أما أصول باختين في تستند بشكل رئيس على الفكر اللساني والفلسفي والأدبي، فضلاً عن إفادته من الإرث الماركسي والشكلاني وسوسيولوجيات لوكا شوقد صاغ جميع نظرياته التواصلية ومفاهيمه لتنسجم مع الفكر عبر اللساني الذي يعتمد على عملية التلطف وحياة اللفظة عبر التاريخ.

● الخاتمة:

وفي نهاية دراستنا لنظريات التوافق لدى هابرماس وباختين توصلنا لبعض النتائج المهمة، ومنها:

– يتفق العالمان على استعمال اللغة في نظريتهما، واللغة هنا عبارة عن وعاء تذوب فيه كل المذاوات المتحاورة.

– يتفق العالمان على رفض الاحادية والسلطوية والهيمنة، فهما يدعيان إلى فضاء حر يمارس فيه الذات حريتهم وإبداء آرائهم.

– اتفق العالمان على عدم صاء الآخر، لأن هذا الآخر هو الذي يؤسس مع ذاتنا الفضاء العام الذي يعبر عن المجتمع المنسجم والمتفاعل مع كل ما يصدر عنه.

ومما سبق نرى اتفاق هابرماس وباختين، في أهمية الآخر، لكنهما يختلفان في صورته، فعند هابرماس، الآخر شريك عقلاني في الحوار، يجب احترامه بوصفه ذاتاً متكافئة، ضمن شروط تداولية مثالية، أما عند باختين، فالآخر ليس فقط شريك بل جزءاً من تشكّل الذات نفسها؛ إذ لا معنى للذات إلا في ضوء الآخر وصوته وخطابه.

■ ثانياً. نقاط الاختلاف بين هابرماس وباختين:

١- بيئة التطبيق:

يعرف عن هابرماس أنه لم يحد البيئة التي يجب أن تدرس فيه نظرياته (الفعل التواصلي، والفضاء العمومي)، وترك الأمر للدارسين الذين يسعون إلى إخراج الفنون والاعمال الأدبية للإطار النظري للمفهومين، أما بالنسبة لباختين فإن الأمر مختلف تماماً فقد حدد بيئته البحثية التي تتوافق ودراسته للحوارية وتعدد الأصوات، وتتحدد هذه البيئة التطبيقية بالخطاب الروائي الذي يمثل الفضاء الافتراضي لدراساته السوسيولوجية.

٢- أثر خلفياتهما العلمية على نظريتهما:

تستند أصول هابرماس المعرفية الظاهرية والبراغماتية، وكان لهذه الأصول الأثر المهم في صياغة

تزيديتان تودوروف. (١٩٩٦). *ميخائيل باختين الديدالوجيا* (المجلد ٢). (فخري صالح، المترجمون) بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

جيمس غودن فينلي سون. (٢٠١٥). *مقدمة ق صيرة جدًا* (يورنغت هابرماس. (أحمد محمد الروبي، المترجمون) لندن: مؤسسة هنداوي.

حسن م صدق. (٢٠٠٥). *يورغن هابرماس ومدرسه فرانكفورت* (المجلد ١). المدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

عبد الغفار مكاوي. (٢٠١٨). *النظرية النقدية لدرسة فرانكفورت*. المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي.

عبد الملك عيادي. (٢٠٢٠). *الفلسفة العمومية والمطلب الاستراتيجي*. مجلة أفكار وآفاق، جامعة الجزائر، ق سم الفلسفة (المجلد ٨)، صفحة ٧٨.

عبد الوهاب شعلان. (جوان، ٢٠٠٨). *ميخائيل باختين: الكرنفال والحوارية*. التواصل الأدبي، صفحة ١١.

كمال بو منير. (٢٠١٠). *النظرية النقدية لدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهايمر إلى ألكسندر هونيث* (المجلد ١). الجزائر: منشورات الاختلاف.

يؤسس مشروع هابرماس للديمقراطية وابعاد السلطة عن الفضاء العمومي الذي يمارس فيه الأفراد بحرية تامة حوارهم الذي يؤسس لبيئة اجتماعية واقتصادية وسياسية متفاهمة.

تندرج أعمال باختين تحت مسمى عبر لسانيات التي تعتمد الحوارية، وتدعو إلى دراسة الرواية بوصفها جنسًا أدبيًا، دراسة سوسيولوجية.

تدعو دراسات هابرماس إلى تضمين مبدأ الحرية والعدالة والتفاهم بوصفها أساسًا لكل الحوارات التواصلية التي يشارك بها الأفراد.

• المصادر:

أبو النور حمدي أبو النور حسن. (٢٠١٢). *يورجين هابرماس الأخلاق والتواصل* (المجلد ١). بيروت: النور للطباعة والنشر والتوزيع.

ارماندو سالفاتوري. (٢٠١٢). *المجال العام الحدائق الليبرالية والكاثوليكية والإسلام* (المجلد ١). (أحمد زايد، المترجمون) القاهرة: المركز القومي للترجمة.

أم الزين شيخة المسكينى. (٢٠١٤). *الماركسية الغربية وما بعدها: التأسيس والأنعطاف والاستعادة* (المجلد ١). الجزائر: منشورات الاختلاف.

يورغن هبرماس. (٢٠٢٠). *نظرية الفعل التواصلي، المجلد الأول عقلانية الفعل والعقلنة الاجتماعية* (المجلد ١). (فتحي الماسكيني، المترجمون) المدوحة: المرز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

مجموعة مؤلفين. (٢٠٠٨). *فلسفة الحق عند هابرماس* (المجلد ١). المغرب: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

محمد نور الدين أفاية. (١٩٩٨). *الحدائث والتواصلي* في الرباط: دار إفريقيا الشرق.

ميخائيل باخيتين. (١٩٨٦). *الماركسية وفلسفة اللغة* (المجلد ١). (محمد البكري، و يمني العيد، المترجمون) الدار البيضاء: دار توبقال للنشر.

ميخائيل باخيتين. (١٩٨٦). *شعرية دو ستوييفسكي*. (جميل نصيف التكريتي، المترجمون) بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.

ميخائيل باخيتين. (١٩٨٧). *الخطاب الروائي* (المجلد ١). (محمد برادة، المترجمون) القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع.

ميخائيل باخيتين. (١٩٨٨). *الكلمة في الرواية* (المجلد ١). (يوسف حلاق، المترجمون) دمشق: منشورات وزارة الثقافة.

ميلود شنوفي. (حزيران ٢٠١٨). *تعدد الأصوات وحوارية الفن الروائي في نظرية الرواية* عند ميخائيل باخيتين. *مجلة التواصلية*، ، صفحة ٢٧٢.